تاريخ الدولة الرسولية باليمن

وعلاقتها بمصر

١٢٢٩ - ١٤٥٤ م

٦٢٦ — ٨٥٨ هـ

للأستاذ أحمد مختار العبادي

اختلف المؤرخون حول نسب بني رسول ، فنسبهم البعض إلى أصل تركماني ، ونسبهم البعض الآخر إلى أصل عربي . ومن القائلين بالرأي الثاني المؤرخ علي بن الحسن الخزرجي الذي عاش في كنف تلك الدولة في القرن الثامن الهجري ، إذ قال « ونسبهم من يعرفهم إلى غسان ومن لا يعرفهم إلى التركمان »[1] .

ورسول هذا الذي تسمت باسمه هذه الدولة ، هو محمد بن هارون الذي أوفده الخليفة العباسي المستنجد واختصه برسالته إلى الشام

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص

الإنسان : (إن العقل لا يعرض له الغلط إلا من قبل هذه القوة المسماة بالوهم ، وذلك سبب إطلاق لفظ الوهم على الرأي الباطل مجازا ، تسمية المسبب باسم السبب ، فظهر أن تسمية الرأي الباطل بالوهم أولى من تسميته بالخيال ، فإن سبب الرأي الباطل ليس هو الخيال بل الوهم [2]) ويقول في موضع آخر (يريد الشيخ بالوهم في هذا الكتاب المذهب الباطل أو السؤال الباطل ، وذلك لأن العقل قد يعرض له الغلط من قبل معارضة الوهم إياه ، فتسمية الرأي الباطل بالوهم تسمية المسبب باسم السبب مجازا ...)

وعلى ذلك فإن ابن سينا في إشاراته إلى الوهم قصد به كقوة وكباطل ، ولكل مرماه في الفلسفة التي ابتدعها ابن سينا ، وحدد نطاقها . ولعل في مقال هذا ما يقنع المتفلسفين بأن تراث ابن سينا يتطلب في فهمه وتقديره إحاطة واسعة بشتى ضروب العلم والعرفان التي طرقها فيلسوف الإسلام وجالينوس العرب ، وأجاد فيها وأفاد . وهنا فقط تكمن الفلسفة حقا وصدقا في علم العلوم » .

محمد محمود زيتون

ومصر فأطلق عليه اسم رسول وشهر به وترك اسمه الحقيق حتى جهل . ثم حدث أن انتقل رسول هذا مع أولاده وأسرته إلى مصر إبان قيام الدولة الأيوبية ، فأوسلهم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي صحبة أخيه الملك المعظم توران شاه عند فتحه اليمن . ودخل توران شاه اليمن سنة ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) ثم لم يلبث أن عاد إلى مصر سنة ١١٧٥ م (٥٧١ هـ) وصار يحكم اليمن من طريق نوابه حتى مات سنة ١١٨٠ م . وحكم اليمن بعد توران شاه عدة من أبناء البيت الأيوبي مات أحدهم مقتولاً وآخر مسموما .

ولما تولى السلطان العادل الأول الأيوبي ملك مصر ، أرسل حفيده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل — المعروف بقسيس — إلى اليمن سنة ١٢١٥ م (٦١٢ هـ) وكتب إلى أولاد علي بن رسول والأمراء المصريين باليمن يأمرهم بطاعته .

ولقد قويت مكانة بني رسول وعظم نفوذهم في عهد الملك المسعود حتى اشتد خوف بني أيوب على ملك اليمن منهم ، واضطر الملك المسعود أن يسجن اثنين من أبناء علي بن رسول سنة ١٢٢٧ م ولكنه أبقى على الابن الثالث نور الدين عمر وجعله أتابكه .

وفي سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) عاد الملك المسعود إلى مصر بعد أن ولى أمور اليمن إلى أتابكه نور الدين عمر وجعله نائبه بها . وتوفي الملك المسعود في مكة أثناء عودته إلى مصر سنة ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) فقام نور الدين عمر بحكم اليمن قياما كليا ، وأضمر الاستقلال بملكها ، وأخذ يولي في المدن والحصون من يرتضيه ويثق به ، ويعزل ويقتل من يخشاه أو يخالفه ، ولكنه مع ذلك أظهر أنه نائب للمسعود ولم يتبر سكة ولا خطبة » .

ولم يعلن نور الدين عمر استقلاله بملك اليمن وخروجه عن طاعة سلطان مصر إلا في سنة ١٢٣٢ م حينما ضرب السكة باسمه وأمر الخطباء أن يخطبوا له في سائر أقطار اليمن . ولم يكتف نور الدين بذلك بل أخذ يتقرب من الخلافة العباسية ببغداد ملتمساً منها تشريفه بخلعة السلطنة أي الاعتراف به سلطانا شرعياً على اليمن . وقد أرسل له الخليفة العباس المستنصر بالله الشريفة الخليفية والتقليد من طريق الحجاز سنة ١٢٣٣ م ولكنها ذهبت في الطريق ولم يصل منها شيء إلى اليمن . واضطر الخليفة العباس أن يرسل غيرها في العام التالي من طريق البحر — طريق البصرة والخليج الفارسي والمحيط الهندي ، وعند وصولها اليمن سنة ١٢٣٤ م ارتاع رسول الخليفة مبعر مدينة جند وقال : « يا نور الدين ! إن العزيز

يقرئك السلام ويقول قد تصدقت عليك باليمن وولايتك إياه ؛ ثم ألبسه الخلعة الشريفة على المنبر . ولم يكتف السلطان نور الدين بملك اليمن بل حاول السيطرة على الحجاز وانتزاعه من أيدى المصريين ، فأخرج الجيوش المصرية من مكة المشرفة مرة بعد أخرى واستمال عدة من قوادها وخص بالذكر القائد المصرى مبارز الدين على بن برطاس الذى استسلم لنور الدين ودخل فى خدمته سنة ١٢٤١ م (٦٣٩ هـ) وبدا امتداد نفوذ بنى رسول من مكة إلى حضرموت .

ويروى الخزرجى أن عهد ذلك السلطان انتهى فى ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) عندما اغتاله بعض مماليكه وقتلوه فى قصر الجند ، كما يروى أن هذا السلطان « استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وقيل ثمانمائة ، وكانوا يحسنون من الفروسية والرمى مالا يحسنه المماليك فى مصر . وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم فى العدد خارجا عن حلقته وعساكر أمرائه » . ويلاحظ من رواية الخزرجى أن وفاة السلطان نور الدين عمر كانت فى نفس السنة التى توفى فيها السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى مصر ، وهذا يدل على أن فرقة المماليك البحرية التى أسسها نور الدين عمر باليمن تكونت فى نفس الوقت الذى تكونت فيه بمصر فرقة المماليك البحرية الصالحية التى أسسها السلطان أيوب . وهذا يدل ضمنا على وجود اتصال وثيق بين مصر واليمن ، كما يدل أيضاً على بطلان الزعم القائل بأن لفظ بحرية يرجع إلى بحر النيل وذلك بعد أن ثبت فعلا وجود فرقة من المماليك البحرية بعيدة عن مصر والنيل .(١)

ومهما يكن من شئ فقد استطاع قتلة السلطان نور الدين أن يجذبوا بقية المماليك إلى جانبهم وأن ينادوا بابن أخ للسلطان القتيل يدعى فخر الدين ، سلطانا على اليمن ، ويسيروا معه نحو العاصمة زبيد لاحتلالها ، ولكن الدار الشمس إبنة السلطان المتوفى استطاعت أن تدافع عن المدينة ببسالة وبينما يجيء أخوها الملك المظفر بن نور الدين الذى كان مقيما بحصن المهجم ، والذى حينما علم بوفاة أبيه وأطماع ابن عمه فى ملك اليمن ، أسرع من فوره نحو زبيد فى فبراير سنة ١٢٥٠ م ، وسار كلما مر بقبيلة من العرب استخدم خيلها ورجلها حتى تجمع له جيش قوى أوقع الرعب فى صفوف أعدائه . وعلى أثر ذلك اجتمع رؤساء المماليك وأعيانهم وهم غالبية جيش الأمير فخر الدين وكتبوا إلى الملك المظفر يطلبون منه الأمان ، فأمنهم على أن يسلموه ابن عمه وجماعة المماليك الذين قتلوا أباه . فأجابوه إلى طلبه ودخل المظفر مدينة زبيد فى موكب عظيم فى مارس سنة ١٢٥٠ م . واستطاع السلطان المظفر فى ظرف ثلاث سنوات أن يستعيد جميع ممتلكات والده التى استولت عقب مصرعه وأهمها صنعاء والدملوة وتعز ، كما استطاع أن يقضى على ثورة شرفاء الزيدية ومن انضم إليهم من المماليك فى صنعاء سنة ١٢٦٠ م .

وتروى المصادر المعاصرة أنه فى سنة ١٢٦١ م (٦٥٩ هـ) سار السلطان المظفر بجيش كبير إلى مكة لأداء فريضة الحج . وهناك « طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر ، فقال له أحد الأمراء : هلاّ أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين ؟ فقال له السلطان المظفر : أراني أؤخر أعلام ملك كسر الثغر بالأمس وأقدم أعلامى لحضورى » . وهذه العبارة إن دلت على شئ فإنما تدل على مقدار النفوذ الذى اكتسبته مصر فى أنحاء العالم الإسلامى عقب انتصار سلطانها الملك سيف الدين قطز على المغول فى واقعة عين جالوت بفلسطين سنة ١٢٦٠ م .

وكيفما كان الأمر ، أجمعت المصادر المعاصرة على أن السلطان المظفر كان حاكما قويا موفقا . وقد لقبه الخزرجى بلقب خليفة فى آخر حكمه . وتوفى السلطان المظفر سنة ١٢٩٤ م وخلفه على عرش اليمن ابنه الأشرف عمر ثم ابنه المؤيد داود سنة ١٢٩٧ م .

وفى عهد السلطان المؤيد (سنة ١٣١٨ م) أعيد تنظيم الجيش اليمنى على نظام الجيش المصرى ، فيروى الخزرجى أن الأمير علاء الدين كشدغدى « رتب عساكر السلطان المنصورة على ترتيب العساكر المصرية وجعل لها جناحا الميمنة وجناحا الميسرة وجعل خلف السلطان عصائب كثيرة ، وركب المماليك بالنفخ وجعل منهم طائفة طبردارية ، وركب السلطان بهذا الزى » . ويجدر بنا أن نلاحظ بصدد تاريخ هذا التنظيم أنه يوافق عهد سلطنة الناصر محمد فى مصر أى فى الوقت الذى تبلورت فيه النظم العسكرية فى مصر وبلغت ذروة الازدهار ، فلا عجب إن صارت مصر فى ذلك الوقت قبلة أنظار الدول الإسلامية الأخرى وموضع محاكاتها .

وتوفى السلطان المؤيد سنة ١٣٢١ م وخلفه ابنه المجاهد الذى

(١) راجع (زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك « مجلة كلية الآداب » المجلد الرابع سنة ١٩٣٦ .
انظر كذلك (مختار السادى : « دولة المماليك البحرية » عدد الرسالة رقم ٧١٤ (١٩٤٧) .

سرعان ما قبض عليه عمه المنصور بن المظفر وسجنه في قلعة تعز وأعلن نفسه سلطانا سنة ١٣٤٢ م . غير أن مماليك السلطان المجاهد تمكنوا من تسلق حصن تعز خفية وأطلقوا سراح أستاذهم المجاهد وقبضوا على المعارضين لسلطته وعلى رأسهم الملك المنصور الذي حل محل ابن أخيه في السجن .

وكان السلطان المجاهد يخشى قوة المماليك البحرية ، ويخاف خطرهم ولذا « دارت بينه وبينهم عهود وذمم وكتب لهم ميثاقا بالأمان والوفاء ونادى لهم بذلك في الأسواق وجامع الناس » . غير أن المماليك البحرية سرعان ما قلبوا له ظهر المجن وثاروا عليه سنة ١٣٣٤ م وهاجموا مدينتي تعز وجند ، وعاثوا فيها فساداً كما هاجموا مدينة زبيد واحتلوها . ولما علم السلطان بما فعله المماليك ، أمر بقطع أعطياتهم حتى « نهبوا وباع الكثير منهم عدته وثيابه ، وجاهروا السلطان بالقبيح » . ولم يكتف السلطان بذلك بل أمر بإباحة قتل المماليك ونهبهم ، ووزع قواته على مختلف الطرقات لحراستها وحفظها من عيثهم . ولم يستطع السلطان كبح جماح المماليك إلا في سنة ١٣٣٤ م حينما أوقع بهم الأشراف والأكراد هزيمة منكرة في وادي جاحف بالقرب من المهجم ، حيث قتل كثير من أعيان المماليك نذكر منهم أزبك الصارمي ، ولطينا الجمودي وأيلة السراجي . واحتل السلطان مدينة زبيد وخطب له على منابرها سنة ١٣٣٥ م .

ويروي الخزرجي في حوادث سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) من عهد السلطان المجاهد أن جيشا مصريا يبلغ عدده ألف فارس ، وصل إلى اليمن في شهر رجب (يونيو) من تلك السنة وعليه الأمير سيف الدين بيبرس والأمير جمال الدين طيلان ، ومعهم أثنان وعشرون ألف جمل تحمل عددهم ، فاستقبلهم السلطان في زبيد ، فلما دنوا منه ترجلوا وقبلوا الأرض بين يديه وساروا في خدمته ساعة ، وألبسوه خلعة فاخرة وعمامة بمدجين . وبعد أن أقاموا في زبيد عدة أيام صحبوا السلطان إلى تعز . ويضيف الخزرجي أن المصريين عاثوا في المدينة فساداً ، فكانوا لا يجدون طعاماً إلا أخذوه بثمن بخس وانتهبوا بيوتاً كثيرة ، وضربوا كثيراً من الناس حتى قتلوهم ، وقطعوا جميع الزرع في مدينة تعز وضواحيها ، وارتفعت أسعار الحاجيات وضاقت البلاد على أهلها .

ولم يرحل الجيش المصري عن اليمن متوجها إلى الشام إلا في شهر يوليو (شعبان) من نفس السنة ، وقد فرح أهل اليمن برحيلهم ،

وتوفي السلطان المجاهد سنة ١٣٦٣ م وخلفه ابنه الأفضل العباسي الذي تخلل عهده عدة ثورات قام بها الأشراف والمماليك وبعض أخوته . وبالرغم من أن أجزاء كثيرة من الدولة الرسولية استقلت في عهد السلطان الأشرف بن الأفضل سنة ١٣٧٩ م ، فإن نفوذ ذلك السلطان ظل قويا وظلت وفود الدول المجاورة مثل الهند والحبشة تفد إليه تخطب وده وتقدم له مختلف الهدايا . وبعد موت السلطان الأشرف سنة ١٤٠٠ م صار تولية السلاطين وعزلهم يحدث في فترات قصيرة تتخللها عدة ثورات للمماليك ونخص بالذكر المماليك المصريين المقيمين باليمن والمعروفين هناك باسم « المماليك الغرباء » .

وانتهى الأمر باستيلاء بني طاهر على اليمن سنة ١٤٥٤ م فانتهت بذلك دولة بني رسول .

من كل ما تقدم ترى أن هناك أوجه شبه عديدة بين الدولة الرسولية في اليمن ودولة المماليك في مصر . فلقد عاصرت كل منهما الأخرى تقريباً إذ قامت الدولة الرسولية سنة ١٢٢٩ م أحد وعشرين سنة قبيل قيام الدولة المملوكية ، وظلت تلك الدولة زمنا وعاصرت الدولة المملوكية بمصر حتى سنة ١٤٥٤ م . وكان سلاطين الدولتين في بادئ الأمر أتباعا لسلاطين الأيوبيين ثم تمكنوا بقوة نفوذهم وضعف أسيادهم أن يستأثروا بالملك لأنفسهم . واعتمدت كلتا الدولتين على فرق من المماليك ولا سيما المماليك البحرية الذين لعبوا دوراً خطيراً في تاريخ كلا البلدين . هذا وقد عرف عن سلاطين الدولتين بصفة عامة ميلهم الشديد نحو الفنون والآداب وبناء المدارس والمساجد والقصور . وهناك وجه شبه أخير تتلمسه في تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية ببغداد لأن اعترافها بهم سوف يقوي من نفوذهم الأدبي ويكسبهم صفة شرعية للحكم . وقد ظلت الدولة الرسولية على ولائها واحترامها لخلافة بغداد حتى بعد أن قضى المغول عليها وقتلوا الخليفة المستعصم سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) إذ ظل اسم الخليفة المقتول يدعى له على سائر منابر اليمن حتى أواخر القرن الثامن الهجري .

وفي ذلك يقول الخزرجي « في سنة ٦٤٠ هـ مات الخليفة المستنصر وتولى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله أمير المؤمنين أبو أحمد ، وهو الذي يدعى له على سائر المنابر إلى وقتنا هذا من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة » .[1]

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٦٩ .

الاسكندرية أحمد مختار العبادي